بسم الله الرحمن الرحيم

استمطار السحب... حقيقته وحُكمه

بقلم : خالد بن عبدالرحمن الشايع

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فمن القضايا المستجدة في حياتنا المعاصرة ما يطلق عليه (استمطار السحب) أو ما يسمى (المطر الصناعي) وقد تباينت مواقف بعض الناس من هذه القضية ، فمنهم من أنكرها واستبعدها ولم يصدقها ، ومنهم من أقرها ولكنه عارضها واعتبرها منازعة لله في ملكه وقدرته ، ومنهم من نسبها لقدرات البشر وتفردهم بتدبيرها .

ولما كان الأمر كذلك فقد رأيت مناقشة هذه القضية وتناولها بالتركيز على الجانب الشرعي ، فأقول:

أولاً: حقيقة استمطار السحب:

يعرف المتخصصون استمطار السحب أو تعديل المناخ : بأنه زيادة إدرار السحب للمطر ، باستخدام مواد خاصة كمحرضات، أو تطعيم للسحب المتكونة في الجو ، وتكون هذه المواد بمثابة نويات تكاثف أو تجمد، تجتذب جزيئات بخار الماء لتتكثف حولها وتتحول إلى بلورات ثلجية أو قطرات ماء ضخمة وثقيلة بالقدر الكافي للهطول نحو الأرض .

ويقسم المختصون تلك المواد إلى قسمين تبعاً لدرجة حرارة السحاب.

القسم الأول: إذا كان السحاب بدرجة حرارة أعلى من الصفر المئوي ، وعامل التطعيم الرئيسي المستخدم لتحريض السحب هو سائل مكون من نترات الأمونيوم واليوريا ومواد أخرى يتم رشها أسفل السحابة.

القسم الثاني: عندما تكون درجات الحرارة تحت الصفر ، وحينها تحوي السحب مياهاً فائقة البرودة ، ويمكن أن تبقى بلا تجمد حتى درجة ٤٠ تحت الصفر ، وهذه البرودة تؤدي بأمر الله إلى تكوين بلورات ثلجية ، وبهذا يصبح الماء ثقيلاً بقدر يمكنه من السقوط نحو الأرض، وحين سقوطه يكون في هيئة كُتل جليدية رقيقة ، وبما أن تدخل منطقة حرارتها فوق درجة الصفر حتى تنصهر متحولة إلى مطر.

والذي يصنعه الإنسان أنه يسعى لتكوين هذه البلورات الثلجية ، وسبيله لهذا أن يستخدم عوامل التطعيم كالثلج الجاف أو بلورات يوديد الفضة .

وهذه المحرضات يعتمد نمو مكونا ا – بعد إرادة الله – على تكاثف المزيد من بخار الماء على تلـك المكونات ، وعلى التصادم والالتحام بين تلك المكونات مع بعضها ومع قطرات الماء.
ويوضح المختصون أن ثمة ثلاث طرق رئيسية لتلقيح وحقن مخرجات السحب، وهي:
١/ التلقيح عن طريق الأرض حيث يتم وضع أجهزة خاصة فوق سفوح الجبال المواجهـة للريـاح المحملة بالرطوبة والمكونة للسحب، لتقوم الأجهزة بنثر المحلول المستخدم خلالها.
٢/ التلقيح عن طريق الجو وتتم بتركيب مولدات المادة المحرضة وتثبيتها تحت جناحي الطـائرة ، أو تركيب المولدات النارية لمادة البذر تحت جسم الطائرة.
٣/ التلقيح أو الحقن المباشر باستخدام صواريخ (أرض – جو) موجهة ، وتحمل قنابل معبـأة بمـواد البذر لتنفجر داخل الأهداف المحددة من السحب .

ثانياً: لا يتصرف بالمطر إلا الله جل وعلا:
تكاثرت النصوص اللافتة إلى آيات إنزال المطر ، وتنوعت مجالات ما فيها من العبر، مما يوضح ما فيها من الحكم العظيمة وجلال قدرة الرب جل وعلا ، كما في قوله سبحانه :
(إن فِي خَلْقِ السمَاوَاتِ وَالأَرض وَاخْتِلاَفِ اللّيل وَالنهَارِ وَالْفُلْكِ التِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَـعُ الناسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السمَاءِ مِن ماء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَث فِيهَا مِن كُـل دَآبـةٍ وَتَـصْرِيفِ الرِيَاحِ وَالسحَابِ الْمُسَخرِ بَيْنَ السمَاء وَالأَرْض لآيَاتٍ لقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [سورة البقرة:١٦٤].
وقوله تعالى: (هُوَ الذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السحَابَ الثقَالَ) [سورة الرعد١٢].
وقوله سبحانه: (وَإِن من شَيْءٍ إِلا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزلُهُ إِلا بِقَدَرٍ معْلُومٍ . وَأَرْسَلْنَا الرِيَـاحَ لَـوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) [سورة الحِجْر: ٢١و٢٢].
وقوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ) [سورة الواقعـة: ٦٨و٦٩].
وقوله تعالى : (هُوَ الذي أَنْزَلَ مِنَ السماء مَآءً لكُم منْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرْعَ والزيتونَ والنخيل والأعنابَ وَمِن كُل الثمرات) [سورة النحل : ١٠-١١].
وقوله تعالى: (وَأنزَلْنا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً لنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهِ مِما خَلَقْنَآ أَنْعامـاً وَأَناسِـي كَثِيراً) [سورة الفرقان : ٤٨-٤٩].
وقوله تعالى : (وَأنزَلْنا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَناهُ فِي الأرض وَإِنا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) [سـورة المؤمنون:١٨].

وقوله جل وعلا: (أَلَمْ تَرَ أن الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض) الآية [سورة الزمر: ٢١].
وقوله سبحانه: (أَلَمْ تَرَ أن اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُم يُؤَلِفُ بَيْنَهُ ثُم يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزلُ مِنَ السمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن من يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) [سورة النور:٤٣].
وقوله تعالى: (اللهُ الذِي يُرْسِلُ الرِيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) [سورة الروم: ٤٨].
وقوله عز وجل: (وَاللهُ الذِي أَرْسَلَ الرِيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلى بَلَدٍ ميتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النشُورُ) [سورة فاطر:٩].

** فدلت هذه الآيات وما جاء في معناها على أمور منها:

١/ تفرد الله بتدبير نزول المطر في وقته وصفته ومكانه وآثاره.

٢/ تفرد الله تعالى بتصريف السحاب في إنشائه وسيره وأنواعه.

٣/ نفي قدرة العباد على تصريف السحاب بإنشائه أو تسييره أو تشكيله أو جعله ممطراً أو غير ممطر، ولا بغير ذلك من خصائصه التي قدرها الله تعالى.

٤/ نفي قدرة العباد على تدبير شئون المطر من جهة مكانه وأنواعه وآثاره.

٥/ أن مكونات القطر والغيث التي قدرها الله وفق هذه الأركان الثلاثة (الرياح،السحاب،المطر) جارية وفق ناموس كوني محدد خلقه الله وقدره ، وجعل له نظاماً دقيقاً، وقد يتوصل العباد إلى معرفة هذا النظام الكوني أو بعض أجزائه،كعلمهم بمواسم الأمطار واتجاهات الرياح وأنواع السحاب،وكعلمهم بوقت الكسوف والخسوف ونحو ذلك، ولكنهم لا يستطيعون أن يبتدئوا هذه الأمور ولا التصرف فيها،وإنما هم داخلون معها ضمن أجزاء التقدير الكوني الرباني.

ثالثاً: حقيقة تأثير البشر في نزول المطر:

من خلال ما تقدم وصفه من طريقة استمطار السحب يتبين بجلاء أنها لا تعدو سبباً من الأسباب التي يبذلها العباد ، والتي تسير وفق السنن الكونية التي أوجدها الله جل وعلا ، فاستمطار السحب كمثل صنيع المزارع الذي يحرث الأرض ويبذر الحب ويسقي الزرع فينبت ويورق ويثمر ، ومع ذلك وإن سمي مزارعاً إلا أن الزارع حقيقةً هو الله سبحانه، ومثله ماء الإنسان الذي يجعله في (قَرَارٍ مكِينٍ) ويلتقي بماء المرأة ، لينتهي دورهما عند هذا الحد، ثم يقلب الله هذه النطفة ويخلقها في أطوارها المقدرة ويصورها كيف يشاء سبحانه،ولا يصح عقلاً ولا شرعاً أن ينسب للأبوين أنهما هما اللذان خلقا الجنين، بل غاية صنعهما أنهما عملا بالأسباب،كما صنع المزارعون وكما يصنع خبراء المطر الصناعي.

ولذلك فإن عملهم جميعاً (صاحب النطفة وصاحب البذرة وصاحب تلقيح السحب) حلقة من حلقات الثمرة النهائية،فلو لم تتوفر الأسباب الأخرى التي قدرها الله ما استطاعوا انجاز ما أرادوا،فالنطفة لا بد لها من رَحِم، ولا بد من سلامتها وسلامة موضعها،وغيرهما من الأحوال العديدة التي لو اختلت لما تكون الجنين،ولذلك فإن العلماء يعزُون حالات الإجهاض المبكر في معظمها إلى وجود التشوهات في العلقة أو المضغة،قال الله سبحانه (مُخَلقَةٍ وَغَيْر مُخَلقَةٍ) .

وهكذا المزارع لا يستطيع عن يخرج عن الأحوال التي قدرها الله لإتمام الزرع ، وكذلك تلقيح السحب لا يتفرد الخبراء بجعله ممطراً ، بل يتحينون الفرص التي يقدرها الله كنوع السحاب واتجاه الريح وغيرهما من الأحوال.

ولا يخفى أن هذه المحاولات لإنزال المطر من السحاب لها نظائر في حياتنا ولو في نطاق ضيق، كما في عمليات فصل الملح عن الماء ليصير عذبا، فهي تدور على التبخير والتكثيف، وليس هذا تدخلاً في صنع الله ، بل هو تصرف واستخدام للمادة التي خلقها الله، ولا يمكن لأحد أن يخلُق الحرارة والبرودة أو الماء بوسائط أو مواد غير ما أوجدَه الله في الكون ، كما أن مداواة المَريض بمواد خلقها الله لا تبرر إسناد الشفاء الحقيقي إلى غير الله سبحانه.

ومع كل تلك المحاولات لاستِنْزال المطر صناعياً إلا أن الإنسان لن يجاوز ضعفه ولن يخرج عن سنن الله ، فإن كثيرا من بلاد هؤلاء العلماء والخبراء الذين يبنون عمليات استمطار السحب لا زالت أنحاء من بلدانهم تشكو الجَفاف وقلة الماء وهلاك الزرع والحيوان، فلو أمكنهم التحكم في المطر والماء والريح – وأنى لهم ذلك – لما تركوا الحال كما هي عليه ، ولكن كما قال سبحانه: (فَأَنزَلْنَا مِنَ السَمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) [سورة الحِجْر: ٢١و٢٢] ، وإلى جانب عجزهم عن الإغاثة من القحط، فهم عاجزون عن دفع ما يقع من العواصف والصواعق والسيول والزلازل والبراكين عن بلدانهم ، برغم ما يملكونه من مخترعات وتقنيات عالية ، فالحال كما قال سبحانه: (يا أيها الناسُ أَنْتُمُ الفُقراءُ إلى اللهِ والله هو الغَنِي الحميد . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ويأتِ بِخَلْقٍ جَدِيدْ . وَمَا ذَلِكَ عَلى اللهِ بِعَزِيز) [سورة فاطر : ١٥ – ١٧].
فقدرة الله فوق قدرتهم، وإرادة الله فوق إرادتهم.

ومع ذلك كله فإنه إذا تم تلقيح السحب فالنتائج غير مؤكدة ، ولهذا لا زالت هذه العمليات محل خلاف ونقاش بين المختصين ، وخاصةً أ ا ذات كلفة عالية بالنظر لحاجتها إلى تقنيات عالية وخبراء مؤهلين ، وهذا ما تحتكره بعض الدول لتبالغ في دفع نفقاته،وحين يعدد المختصون سلبيات هذا المشروع يقولون: إن من عيوب هذه التقنية أمورٌ منها:

١/ إمكانية هطول الأمطار من السحب المزروعة في أماكن غير المطلوب هطولها فيها ، كأن هطل في أراض ومساحات غير مزروعة أو في البحر أو غير ذلك.

٢/ صعوبة تقييم النتائج بعد عمليات الاستمطار وذلك للوقوف على مقدار الإضافة التي تمت في كمية الهطول اصطناعياً وبسبب عمليات الاستمطار.

٣/ عدم القدرة العلمية حتى الآن على تقييم الأثر البيئي لهذه التقنية على المناطق المتجاورة ، إذ أن زيادة الأمطار في مكان ما قد يكون على حساب مناطق أخرى . ويدخل في هذه الآثار البيئية أن هطول الأمطار الاصطناعية قد يصاحبها التأثير الكيميائي للمواد المستخدمة فتضر بالناس أو بالمحاصيل والمزروعات ، علاوة على حالات الفيضانات غير المتوقعة في مناطق لم يعتد ساكنوها على هطول الأمطار الغزيرة.

رابعاً: حكم استمطار السحب:

من خلال ما تقدم عرضه حول كيفية استمطار السحب وأ ا عملٌ بالأسباب التي قدرها الله جل شأنه ؛ فلا يظهر ما يمنع منها شرعاً ولا عقلاً ، فحكمها الذاتي الأصلي أ ا مباحة ، إذ لا محذور شرعي فيها ، وقد تكون من الأسباب المأمور ا في بعض البلاد بحسب ظروفها ، من جهة حاجتها للقطر والغيث ، كما يصنع الناس في صنعهم للسدود وحفر الآبار وإجراء القناطر .

ولا يخفى أن الحكم الشرعي لهذه المسألة مبني أيضاً على جوانب خارجة عن ذات العملية ، كمثل ما ينبغي من تحقق مستويات الأمان من الفيضانات في المناطق السكنية ، وكذلك حجم تكاليفها وعدم التبذير لأجلها على حساب ضروريات أخرى.

وممن أفتى بجواز عملية الاستمطار الشيخ العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، والشيخ عطية صقر وغيرهما من العلماء.

خامساً: تنبيه على بعض الاعتقادات والألفاظ:

أختم هذا المقال بالتنبيه إلى ما وقع من مجانبة الصواب من بعض من عبر عن استمطار السحب بتعبيرات مجافية للعقيدة ، كقول بعضهم : الأمطار وراءها خبراء الاستمطار ، ونحو ذلك ، وقد نبه نبينا محمد ﷺ إلى ما ينبغي ملاحظته حول الاعتقادات والتعبيرات في عموم الأحوال وفي قضية نزول المطر خصوصاً ، بأن ينسب تصريف الأمور إلى الله وحده، والاعتقاد الجازم بأن عمل المخلوقين إنما هو من جملة الأسباب التي قد تنفع بتقدير الله ، وقد لا تنفع ولا تفيد.

قال الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه: باب قول الله تعالى: (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) [الواقعة:٨٢] قال ابن عباس : شكركم . ثم أسند عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة ، فلما انصرف النبي ﷺ أقبل على الناس فقال: "هل تدرون ماذا قال ربكم" ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر،فأما من قال: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي ، كافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ، مؤمنٌ بالكوكب".

قال الحافظ ابن حجر: وكانوا في الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء إما بصنعه على زعمهم ، وإما بعلامته ، فأبطل الشرع قولهم وجعله كفراً ، فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعاً في ذلك فكفره كفر تشريك ، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة فليس بشرك ، لكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة ، لأنه لم يقع في شيء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة ، فيحمل الكفر فيه على المعنيين ، لتناول الأمرين ، والله أعلم.

ثم قال البخاري: باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله ، وأسند عن بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : "مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم أحدٌ ما يكون في غد ، ولا يعلم أحدٌ ما يكون في الأرحام ، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، وما يدري أحد متى يجيء المطر ".

وينبغي أخيراً ألا يظن أحدٌ أن هذه العمليات والأسباب مغنيةٌ عن الأسباب الشرعية المتمثلة في دعاء الله والاستسقاء ، فذلك تعبدٌ لله ببذل الأسباب المادية ، وهذا تعبدٌ لله ببذل الأسباب الشرعية. كما أن أداءنا لشعيرة الاستسقاء لا يمنع من بذلنا الأسباب المادية المشروعة التي ييسرها الله لمن شاء من عباده.

وفق الله الجميع لما فيه الخير ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

حرر في ١٤٢٨/١/٢٠هـ.

khalidshaya@hotmail.com